مبادئ العالم الحر !

للأستاذ سيد قطب

« العالم الحر » اسم يطلقه الاستعماريون فى إنجلترا وفى فرنسا وفى أمريكا على تلك الكتلة الاستعمارية التى تكافح ضد الزمن ، وتقاتل ضد الإنسانية ، وتقاوم ضد الحرية . ثم تطلق على نفسها فى النهاية اسم « العالم الحر » !

و « العالم الحر » مشغول فى هذه الأيام بتمزيق إهاب « الحرية » فى تونس ومراكش وفى كينيا وفى فيتنام .. وفى كتم أنفاس « الأحرار » فى كل مكان ؛ لأن رسالة العالم الحر هى أن يكون حرا فى قتل الحرية حسبما يشاء !

و « العالم الحر » يرتكب من الجرائم مايقشعر له ضمير البشرية . وذلك رغبة فى نقل مبادئ الحضارة الغربية إلى القارة المظلمة . وإذا كانت هذه القارة لا تريد أن تتحضر على يد البعثات التبشيرية فلتتحضر إذن بالسيف والمدفع والطيارة والدبابة ؛ وهى أقدر ولا شك على نقل مبادئ الحضارة إلى الشعوب المتخلفة !

و « العالم الحر » يشرد الشعوب من ديارها — على نحو ما فعل فى فلسطين — وذلك رغبة منه فى إيجاد « لاجئين » يتولى رعايتهم ، والعطف عليهم ، وإقامة المخيام لهم فى العراء . فمبادئ العالم الحر تقتضى العطف على المشردين ، الذين لا وطن لهم فى هذه الأرض المعذبة !

و « العالم الحر » يتساند ويتكاتف فى هذه المهام الضخام . أليس الدولار هو الذى يشد من أزر فرنسا فى تونس ومراكش وفيتنام ، ويشد من أزر إنجلترا فى كينيا ومصر وفى كل مكان ؛ ويشترى الصحف والأقلام والجماعات والجمعيات والرجال والنساء فى هذه الأيام ؟ !

وأنا لا أعيب على « العالم الحر » أن يمزق إهاب الحرية ويمثل بجثث الضحايا من الأحرار ، ويقتل الأطفال والنساء والشيوخ فى القرى الآمنة ، ويرتكب الجرائم الوحشية التى يرتكبها بلا تحرج . فإن هدفه السامى من وراء ذلك كله واضح — كما قلت — وهو نقل مبادئ الحضارة الغربية بطريقة عملية إلى الشعوب المتأخرة ، التى لا يجوز أن تظل متأخرة !

إننى لا أعيب على هذا « العالم الحر » حريته هذه . حرية وحوش الغابة فى أن تصنع فى الغابة ما يؤهلها له الظفر والناب . فمبادئ الحضارة الغربية هى هذه كما كانت وكما هى كائنة ، وكما ستكون حتى يأذن الله لها بالفناء

كلا ! إنما أنا أتلفت إلى شعوبنا وحكوماتنا ومفكرينا وكتابنا وشعرائنا وجماعاتنا وجمعياتنا .. أتلفت إليهم لأرى هل سكتت الأبواق التى تهتف بمجد الحضارة الغربية ؟ هل خرست الألسنة التى تتحدث عن الصداقة الأمريكية والصداقة الإنجليزية والصداقة الفرنسية ؟ هل انزوت الجماعات والجمعيات التى تحمل ألوية الصداقة مع « العالم الحر » وتشيد بجهوده فى الخدمات الاجتماعية والتعليم الأساسى واليونسكو والنقطة الرابعة وسائر الوسائل الاستعمارية الحديثة التى تنخر فى صخرة المقاومة الشعبية ؟

أتلفت لأرى هذه الأبواق لا تزال مفتوحة ، ولأرى

أو قص القصاص أو غنى المغنون خلال تلك الفترة ، تعرفوا على وجه اليقين من الذى صنع هذه الثورة ...

بلى إنها ثورة سياسية بعيدة المدى ، ولكنها قبل أن تبدو طلائعها بسنين ، كانت ثورة مفكرين أحرار !

مفكرون أحرار ، أودعوا بذرتها هذه الأرض الخصبة ثم توارروا فما يكاد يذكرهم أحد ؛ أو لعلهم يذكرون ، ولكن بغير ما يجب لهم من التوقير وعرفان الجميل ؛ لأنهم تحت مجهر الثورة أقزام بجانب العمالقة الضخام من أعلام السياسة .. ولكل عصر موازين !

محمد سعيد العريان

هذه الألسنة ما تزال طليقة ، ولأرى هذه الجمعيات والجماعات ما تزال تتبجح وتعلن عن نفسها بلا حساب ، وتنفق الأموال الضخمة فى هـذا الإعلان ، والدولار من خلفها يمكن لها من العمل ويمكن لها من الإعلان !

إن «العالم الحر» لا يحاربنا بالمدفع والدبابة إلا فى فترات محدودة ؛ ولكنه يحاربنا بالألسنة والأقلام ، ويحاربنا بالمنشآت البريئة فى مركز التعليم الأساسى ، وفى هيئة اليونسكو ، وفى النقطة الرابعة ؛ ويحاربنا بتلك الجمعيات والجماعات التى ينشئها وينفخ فيها ويسندها ويمكن لها فى المراكز الحساسة فى بلادنا ... وأخيرا فإنه يحاربنا بأموال أقلام المخابرات التى تشترى الصحف والأقلام ، وتشترى الهيئات والجماعات .

وواجبنا نحن أن نكافح ، واجبنا أن نكافح الوسائل الاستعمارية الحديثة، ونكافح الهيئات والجماعات والمؤسسات التى تيسر العمل لهذه الوسائل : مهما كانت أسماؤها بريئة

إن الاستعمار الروحى والفكرى هو الاستعمار الخطير حقا . فاستعمار الحديد والنار يثير المقاومة بطبيعته، ويؤرث الأحقاد القومية التى تقتلع الاستعمار من أساسه. أما الاستعمار الروحى والفكرى فهو استعمار ناعم لين ، مخدر ، ينوم الشعوب ، ويستل أحقادها المقدسة التى يجب أن تتأجج ، وتستحيل نارا وشواظا يحرق ويدمر الاستعمار وعملاءه فى يوم من الأيام .

لقد قام بيننا فى وقت من الأوقات رجل يسمى «أمين عثمان» يحمل لواء الصداقة الإنجليزية فى فجور وتبجح ، ويؤسس جمعية نادى العلمين . كما قامت فى ظله « جماعة إخوان الحرية ». ولقد هرعت الشخصيات الكبيرة يومها إلى أمين عثمان وجمعيته . الشخصيات المستوزرة التى تشم رائحة الحكم من عشرات الأميال .. ولكن حاسة الشعب السليمة ظلت تنفر من الرجل وجماعته على الرغم من انضمام « الشخصيات الكبيرة » لأن الشعب يعرف قيمة هـذه الشخصيات ودوافعها !

واليوم يقوم رجل آخر بدور أمين عثمان . يقوم به فى محيط آخر وتحت عنوان آخر . وتهرع الشخصيات الكبيرة ذاتها إلى الانضمام إليه ... وما من شك فى أن الأمة بحاستها السليمة ستظل فى معزل عن هذه المحاولة الجديدة.. ولكن الاطمئنان إلى حاسة الأمة لا يجوز أن يقعد بالشباب الواعى عن التنبيه إلى هذا الخطر الجديد، وإلى التحذير من وسائله الناعمة وعنوانه البرئ .

إن الحرب المقدسة مع الاستعمار اليوم تقتضى تخليص ضمائر الشعوب أولا من الاستعمار الروحى والفكرى ، وتحطيم الأجهزة التى تقوم بعملية التخدير ، والحذر من كل لسان ومن كل قلم ، ومن كل جمعية أو جماعة تهادن معسكرا من معسكرات الاستعمار ، التى ترتبط جميعها بمصلحة واحدة ، ومبادئ واحدة . مبادئ العالم الحر ومصالح العالم الحر !

* * *

فى الغرب يقوم « العالم الحر » وفى الشرق تقوم « الديمقراطيات الشعبية » ونصيب هذه الديمقراطيات من اسمها كنصيب العالم الحر من اسمه سواء بسواء !

فالديمقراطيات الشعبية هى الديمقراطيات التى تحكم حكما ديكتاتوريا مباشرا ؛ تحرسه الجاسوسية الرهيبة؛ ولا تسمح لفرد من الشعب فضلا على الشعب كله أن يفكر بحرية، ولا أن يفكر فى الحرية ذاتها بحال !

وإذا كان للعالم الحر أجهزته وأقلامه وألسنته ، فإن للديمقراطيات الشعبية أجهزتها وأقلامها وألسنتها ... وكلها تعمل فى محيطنا العربى والإسلامى ... وكلها تستحق منا المكافحة كما نكافح الاستعمار ... إلا أن الاستعمار يجثم على صدورنا اليوم ويخنق أنفاسنا بعنف. والواجب يقتضينا أن نوجه المقاومة الإيجابية للاستعمار ، والمقاومة الفكرية للديمقراطيات الشعبية !

والراية التى تجمعنا لنكافح ... هى وحدها راية الإسلام